مسألة الإسلام في الأوساط الأكاديمية الأوروبية (ق 16-18م)

د.أحمد رنيمة *

الملخص:

عرف تاريخ أوربا منذ ظهور الإسلام وانتشاره اضطرابات ومجادلات ونقاشات فيما يخص مسألة التعامل مع ذلك الخصم القوي الذي استطاع وبكل سرعة، الاستيلاء على الكثير من المناطق التي كانت تحت هيمنتها، كالشام وشمال إفريقيا وشبه جزيرة أيبيريا... لم يكن لرجال السياسة خيار غير المواجهة العسكرية التي انتهت بهزائم ووضعت كامل القارة تحت تهديد مباشر وحقيقي، لكن رجل الدين والفكر كانا عليهما النظر مجددا في الإسلام من منظور فكري وإيماني، وكذا من منظور وجودي وتاريخي.

وفي سياق البحث عن آليات المواجهة، ظهر بعض الكتاب ومعظمهم من الأوساط الدينية اللاهوتية، يحاولون الرد ومجادلة المسلمين، بل لجأوا إلى الشتم والتهجم والافتراء بسبب غياب المعطيات الضرورية من جهة وعدم كفاءتهم العلمية من جهة أخرى إضافة إلى الشحنات العاطفية والايديولوجيا والمصالح المادية والرغبات المنفعية الدنيوية التي كانت تحركهم.

ومع مرور الزمن وتطور أوربا من الناحية الفكرية والثقافية والمعرفية، ظهرت بعض الآراء التي حاولت فهم الإسلام والتقرب من المسلمين ومن مصادرهم المعرفية الأصلية، والتخلص من أطروحات العصر الوسيط التي كانت تتميز بالدوغمائية والتعصب. ومع عصر النهضة ثم عصر الأنوار تحلت

* - أستاذ باحث في تاريخ الحضارة الإسلامية، بقسم التاريخ ، جامعة حسيبة بن بوعلي ،الشلف، الجزائر

المعرفة العلمين من الأوساط الدينية إلى الأوساط اللائكية، في الجامعات، وأصبحت مسألة الإسلام تطرح بأشكال مختلفة عن السابق، فيها الكثير من الموضوعية والاتزان والتسامح، بل ظهرت رغبات واضحة للتعايش والتعاون بين المماليك الأوربية والدول الإسلامية. لكن رغم مجهودات الكثير من المستشرقين، فإن اغلبهم استمر في استعمال مفاهيم وأدوات العصور الوسطى فيما يخص التعامل مع الإسلام والمسلمين.

الكلمات المفتاحية: الإسلام، أوربا، الاستشراق، عصر الأنوار، صورة الإسلام، نظرة أوربا للأخر.

Abstract:

In the history of Europe and for a long time, the question of Islam represented one of the principal problems. From the earliest polemics of St. John of Damascus, Euthymius Zigabenus, and the Crusaders, in the Middle Ages to the Renaissance and the Enlightenment, f Islam and Europe have negotiated various modes of sharing world history. It is a history filled with clashes and confrontation, competition and challenge, admiration and hatred, acceptance and rejection, and a host of other conflicting feelings, attitudes, and experiences. The polemical works of Byzantine theologians were as much theological in nature as cultural and political. As the lands once under Byzantine rule rapidly became part of Muslim lands, the Jews and Christians were recognized as protected people (ahl al-dhimma) and were granted fundamental freedoms. The fact that Jesus Christ and the Virgin Mary, among other Biblical figures, were given a prominent place in the Qurʾān and the ḥadīth became a source of consternation for many Christian theologians in the East and later in Europe.

The medieval Christian theologians interpreted the themes common to Islam and the Biblical tradition not as a matter of "creative borrowing, as

nineteenth-century Orientalists would call it, but as a sign of outright heresy. St. John of Damascus, called Islam the heresy of the Ishmaelites, The Christian apocryphal literature on the Prophet Muḥammad(peace be upon Him) was more than polemical. If Embrico of Mainz's Vita Mahumeti and Walter of Compigne's Otia de Machomete a century later are any indication, it was also an elaborate means of constructing a religious "other" for medieval Christendom. The refusal to speak to Muslims on their own terms continued throughout the Middle Ages and the Enlightenment and didn't stop till present. There were, however, attempts at what we call today interfaith dialogue. Following the tradition of St. Bernard of Clairvaux and Ramon Lull, John of Segovia, the so-called "first missionary to Muslims," believed that the only way to counter the menace of Islam was not to build up armies, which the Europe of the time was in any case unable to do, but to convince Muslims to accept Christianity. By the 18th century, many scholars tried to show their rationalism and toleration by treating Islam as a respected religion and a great civilization; some of them thought that it would be more advantageous for the modern European states to cooperate with Muslims, however, many other scholars at the universities kept the medieval concepts ;methods and material to deal with the question of Islam.

Key words: Islam, Europe, Orientalism, Enlightenment, Image of Islam, European views of the Other.

مقدمة:

كانت الفتوحات العسكرية الإسلامية الكبرى (622-750م) بعد القرن الثامن الميلادي قد أصابها الفتور، لكنها انتجت استقرار مؤكدا للإسلام في أجزاء من أوربا، (جنوب إيطاليا، ومعظم شبه جزيرة إبيريا، وجزر البحر المتوسط، بما في ذلك صقلية)، حينئذ شرعت معظم الشعوب الأوربية في

إنتاج نوع من الثقافة المعبرة عن موقفها من الإسلام ومن المسلمين. وكانت هذه الثقافة قد برزت في أشكال جدالية دينية من الجهات الرسمية، وفي أدبيات شفوية أسطوريا شعبية، ولكن بتأطير رسمي من الكنيسة. وحينذاك كانت أوربا الغربية لاتينية الثقافة ومسيحية الديانة وكاثوليكية الكنيسة، يسيطر فيها البابا على السلطتين، الروحية والزمنية. لقد إضطرت الكنيسة، بحكم مسؤولياتها الداخلية ومتغيرات الواقع الخارجي إلى تبني شكلا من المحاورة والمجادلة والسجال مع المسلمين بإلزام الأعمال الفكرية المدافعة بأن تكون روح وصوت المجهودات الحربية المهاجمة. فكانت بذلك الحروب الصليبية (1095-1291م) هي مرجعية الحوار ومنطلق الصراع لفترة زمنية طويلة لحقتها.

مع مطلع القرن السادس عشر الميلادي كانت النخب في أوربا قد استطاعت أحداث تحولات عميقة في بنية مجتمعاتها، وشرعت في تجاوز الأنساق المطلقة والمغلقة التي فرضتها الكنسية والاقطاع. كما تمكنت مؤسساتها السياسية في غرب أوربا خصوصا، من إحداث توازن مهم مع المؤسسات السياسية الإسلامية على المستوى الفكري والتقني والتنظيمي، وسرعان ما تحوّل التوازن هذا إلى تفوق مؤكّد خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادين، وهيمنة كلية خلال النصف الأول من القرن العشرين. وفي خضم التحولات الكبرى التي عرفها الغرب، كان الإسلام والمسلمون دوما كما تؤكده معظم المصادر الغربية في هذا الموضوع[1] هما المصدر الأكثر سخاء في فتح باب الممكن وتقديم الخيارات الضرورية لمعرفة طبيعة وخصوصيات الحياة العامة، وفي الوقت ذاته كان الإسلام المصدر الوجودي الأكثر تهديدا للغرب والعنصر الأكثر تحفيزا للبناء الداخلي لأوربا.

كما مثّل القرن السادس عشر الميلادي داخليا، فترة مفصلية في تاريخ أوربا. لقد كان قرنا عنيفا أشد العنف بصراعاته وحروبه ودماره، كما كان شديد القسوة على الناس بانتشار الأوبئة والمجاعات... لكن المدهش أنه كان الفترة الأكثر إنتاجا للسكان والعمران والثروة. كما كان هذا القرن أيضا قرن القطائع مع أشكال الفكر القديمة، وأساليب التعليم والتصورات الدينية والعلمية المغلقة، والسير نحو المعرفة العلمية الأكاديمية، والاستعداد لإنتاج فكر الأنوار وتحقيق ثورة صناعية أكدت التفوق الكامل لصالح الغرب على العالم.

لقد ظلت مسألة الإسلام حاضرة بأشكال مختلفة ومتنوعة، في الوعي الأوربي خلال القرنين السادس عشر الميلادي وما بعده،حضور يتجاوز الأوساط الدينية الكنسية القديمة وسجالها ومجادلاتها العقيمة، حضور في الأوساط الجامعية، وفي المؤسسات التعليمية المدنية المنفصلة عن المنظومة الكنسية، إضافة إلى رجال الدين المبشرين، أضحى الإسلام موضوع اهتمام الجغرافيين والرحالة والأدباء والرسامين، والفلاسفة والمفكرين الأنثر وبولوجيين، والإثنوغرافيين واللسانيين، وعلماء الأديان والأركيولوجيين، وغيرهم كثير. فالإسلام كان مسألة معرفية ووجودية، كان حاضرا كإمبراطوريات وكيانات سياسية وفضاءات جغرافية وثقافية إنسانية، كان على أوربا تحقيق مشروع إختراقها وإخضاعها، إن لم تستفد منها وتستغل تراثها وإبتكاراتها.

لقد بدأ بناء المنظومة الجدلية المسيحية في أوربا ضد الإسلام في خلال القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين، أو بالأحرى إعادة البناء لأنها لم تخرج عن المنظومة الجدالية القديمة وعن تعاليم ومفاهيم الكتابات المقدسة[2]. خلال القرن الرابع عشر الميلاد يتجلى معظم الأسس المنهجية والمعرفية لتلك

المنظومة، ولكنها بقيت في حدود مدارك ومعتقدات العصر الوسيط اللاهوتية والفلسفية وضمن المتغيرات السياسية والعسكرية وواقع الحياة الإجتماعية والإقتصادية. وقد تركّزت تلك الأسس في شكلها المبكر في استيعاب التدوين المسيحي الشرقي عموما حول الاسلام، والمتمثّل في بعض الكتابات العربية (عبد المسيح الكندي ويحي بن عدي) والأعمال العربية- الإغريقية (يوحنا الدمشقي) وكذا أعمال الآباء البيزنطيين الإغريق (نيكيتاس البيزنطي وإيثيميوسزيغابينوس)، وبعض أعمال لاهوتيي الأندلس المستعربين (ألوغيوسوألفاروس القرطبيين). وأصبح هذا النظام الجدلي مرجعا مؤسسا في أوروبا بعد منتصف القرن الرابع عشر، وقد تواصل بكل قوة مع ازدهار الحركة الإستشراقية وانتشار الدراسات العربية والإسلامية في أوربا، ليستمر تأثيره في العديد من الأجيال حتى زمننا الحاضر.

يعد القرن السابع عشر الميلادي مرحلة ثورية بظهور الدراسات الأكاديمية، على الرغم من احتفاظها بأشكال قديمة من الآراء والمواقف، حيث يمكن ملاحظة ذلك بكل وضوح في الأعمال الجدالية التقليدية التراثية، مثل كتاب التاريخ الشرقي الذي ألفه المؤرخ الجرماني رانهارترابنك (1541-1595م) الذي صدر سنة (1602م)والذي يمثّل تراكم معارف رحّالة العصور الوسطى وإخباري الحروب الصليبية.[3] وفي السياق نفسه فقد اقترح سيلبورغ[4] (1536-1596) أن الأجدر هو بناء نظرة وجودية عميقة (انطولوجيا) حول الإسلام اعتماداً على النصوص الإغريقية القديمة، ولعلّ الإعتماد هنا سيكون كبيراً على يوحنا الدمشقي وكذلك إيثيميوسزيغابينوس إضافة إلى قانون الهرطقة والرّدة (قانون الخروج عن العقيدة المسيحية). أمّا بالنسبة للمؤرخين أمثال كوريو[5] (1538-1567) فقد قدّم معلومات جديدة على ذلك العصر دون تمييز أو نقد حتى وإن كان يشعر أنها قديمة أو خاطئة.

أما عمل درشسلر[6]المعنون تاريخ السرازيين والأتراك، فكان دعاية مكشوفة يغلب عليه التعميم، ويفتقر أصلا إلى المصادر الأصلية أي العربية أو العثمانية، أما عمل"التاريخ العام"GenerallHistorie الذي وضعه كنولس[7]سنة (1604م) فكان جمعا كبيرا لمادة تاريخية أسطورية وخرافية ضمن عمل متميز من الناحية الأدبية، وقد أضيف له الكتاب الثالث في طبعة (1614)بعنوانPurchas his pilgrimage"الطهارة أو المغفرة بالحج"حيث جمع معلومات جيدة من المؤرخين القدامى، وكذلك الشأن بالنسبة لهوتنغر[8]الذي قدّم نقدا جذريا لمدونة كلونيالتي أشرف عليها بطرس المبجل وجمعها سنة1142م التي طبعت سنة 1543م بإسم مدونة طليطلة، «Corpus Toledanum»وكان هوتنغر يستعمل مصادر أصلية بكل عدل وعقلانية وحكمة في كتابه HistoriaOrientalis، وقد كان هذا العمل محاولة لإنهاء جدال تقليدي كبير. كما كان شتروكهوزن[9] خلال سنة (1664م) قد استعمل مادة مقبولة نسبيا على الرغم من احتوائها على ترهّات كنسية قديمة. وكذلك بالنسبة لبعض الكتاب أمثال بيانتيني،[10]والذي جاء عمله لاهوتيًا دعائيًا ودوغمائيًا أكثر منه علميا، وكان في معظمه جمعًا أدبيًا لكتّاب قدماء، وكان يوصف بأنه رجل تقي ولكنه غير متخصص على الإطلاق، فجاء عمله غير متقنٍ وغير ممحصٍ بل كان عمله متزمتاً[11]. وقد ساهم هؤلاء وغيرهم في نشر ثقافة قديمة أضحت مألوفة، وأصبح من الصعب التمييز بين العمل الدعائي من صاحب الأسلوب المتخصص العلمي لدى المثقفين فما البال بالعامة.

1-تلقي القرآن الكريم في أوربا:

لقد وضعت أول ترجمة للقرآن الكريم إلى اللغات المحلية الأوربية والتي كانت لغات عامية من طرف أندري دورايز[12]في فرنسا وقد نشرت

سنة(1647م)، وقد صنفت هذه الترجمة ضمن الأعمال الشعبية أكثر منها ضمن الأعمال العلمية جامعية وقد استغلت لأغراض دعائية، وظهرت النسخة الإنكليزية في لندن بعد سنتين، أي سنة(1649م)على يد ألكسندر روس[13] وكانت هذه السنة سنة إعدام الملك تشارلز الأول، ولم يعرف الوضع الديني المضطرب أي تسوية سلمية وقد خيمت الحيرة على المصير الديني للمملكة. لقد كان روس حذرا في الإعلان"إنه من الضروري إعلان وثيقة عمل أو تحذير لأولئك الذين يرغبون في الإطلاع على استعمال القرآن وما يمثله ذلك من أخطار".ويمكن معرفة مدى تأثره بالأحكام التقليدية من خلال نص معبر عن حقيقة التصورات الغربية عن الإسلام والمسلمين أورده نورمن دانيال[14]، في كتابه الإسلام والغرب[15].

لقد ظهرت في بريطانيا خلال فترة تأسيس الكومنولث الإنجليزي (1649م)، ترجمات أقرب إلى الدلالات الحقيقية وأكثر مصداقية اعتمادا على ترجمة خوان أندرس[16] (ت1515)، وذلك مسايرة لمشروع الإمبراطورية الذي كان يعمل على التقارب بين المستعمرات البريطانية. وكان بوكوك[17]قد لقي جمهورا مهتما بالدراسات العربية في ظروف تضائل فيها الإهتمام بمثل هذه الدراسات خلال عودة الملكية للإستقرار بتولي شارل الثاني عرش إنجلترا عام(1660م).

2-<u>حضور الإسلام في الصراع الديني بأوربا</u> :

لقد أثرت الخصومات التقليدية المنتشرة في أوربا وكذا الصراع داخل الكنيسة التي انشقت إلى كنيستين، فيما يتعلق بمسالة نقد الإسلام، لقد فُهم على سبيل المثالالفرق بين السنة والشيعة في مستوى سطحي، وقد حاول بعض الكتاب مقارنة ذلك مع الفروق بين الكاثوليك والبروتستانت، أمّ

بالنسبة للنقد العميق فلم يكن سوى عرضيا. يبدو أن اللاهوتي الكاثوليكي يتذكّر دوما عقائد الكنيسة الإصلاحية حينما يتحدث عن المسلمين«لأنهم هم أيضا يتمنون أنهم سوف يتخلصون من كل ذنوبهم حينما يؤمنون بمحمد، إنها ديانة خاطئة". وعادة ما كان يُستعمل مثل هذا الجدال التقليدي، والذي كان يُعتقد أنه يقدم تعليلا للإيمان داخل الفكر»[18].

وقد قام بعض اللوتريين[19] بوصف الإسلام بتعاليق القرون الوسطى في أسلوبها، وقد اجتهدوا ليجعلوا من الإسلام شبيها للبابوية في أسس عقيدته. لقد نشروا فكرة إنه فحينما يقترف المسلم الآثام ويرتكب المعاصي والذنوب فإنه سرعان ما يلجأ إلى ذلك"الاختراع"وهو العمل الصالح، والصدقة، والصلاة، والصوم وعتق الرقيق إلى غير ذلك من أجل إرضاء الله وطلب العفو عمّا اقترفوه من الآثام. من المؤكد أن هذا التصور يميل إلى اعتبار أعمال المسلمين تلك هي طريقا إلى الخلاص. إن ما جاء به الإصلاح الديني من جدالا وسجال لم يكن سوى تلوينا سطحي أضاف أشيئا قليلة إلى جوهر ما كان قد قيل من قبل في مسألة الإسلام في الغرب[20].

وفي مقابل القهر الذي كان يعانيه المسيحيين في أوربا من قبل أهاليهم ولأزمنة طويلة هناك تسامح مشهود ومعترف به من قبل الأتراك العثمانيين المسلمين. ولم يكن ذلك التسامح مجرد حادث عارض بل كان من أصول ومبادئ عقيدة المسلمين. لكن حدث وأن ظهرت إمكانية اكبر أعطت فرصة للتفاهم واللقاء وعرفت توسعا وإنتشار، وقد عبر عنها كل من جون بودان[21] وغيوم بوستال، على الرّغم من أن بوستال يدين في عمقه بكثير من المعارف والتصورات إلى أسلافه الوسيطيين، إلا أنّ سفاراته إلى إستنبول ضمن التحالف العثماني الفرنسي ضد شارل كان والبابوية إضافة إلى معرفته للغة العربية، جعلت منه أكثر الأوربيين الغربيين تقبلا لقيم الإسلام الإيجابية.

لقد بدأت حدة الإنحراف تعرف إنخفاضا محسوسا، ويظهر ذالك أعمال بيلون [22] المتميزة بنوع من الصرامة العلمية المطلوبة في وصف ظاهرة الرحلات التي أصبحت أكثر انتشارا في أوربا.

3-أكاديميون أو مجادلون لاهوتيون؟

إن معظم النماذج التي شهدها القرن السابع عشر الميلادي كانت مشحونة بذلك النوع من الدعاية وبإستمرار، وعلى العكس من موقف طوماسهربرت[23] ذلك الرجل الذي كان يوصف في البلاط الإنجليزي بالمحترم وذواق الفن، يقف مباشرة الأب ناو[24] صاحب الخبرة الطويلة في الرحلة إلى الشام وأحد أشهر الآباء يسوعيون الفرنسيين العارفين باللاهوت، والذي شُهد له بالإبداع في الأدب إلى حد كبير، إضافة إلى ملكة الحس المشترك ليده، وكان قد قدم عمل جادا ومحترما بالنسبة لزمانه. لقد حاول الفصل وبقوة في الحدود الممكنة التي تسمح بالتهجم على الإسلام.

«لا يوجد أي أحد-كما يقول-إلا ولديه اقتناع خاطئ بأنه لا يجب الحديث مع الأتراك في موضوع الدين... فالمحمديون ليسوا ذئابا مفترسة". لكن إذا حدث أن أصبح مجادلتهم ممكنة بشكل من الأشكال، فإنه يجب أن يكون التعامل معهم بتواضع وفي جو من اللطف، كما يوصينا بذلك الإنجيل»[25].

ومع ذلك فإن ناو يعتقد أن الإسلام قد تأسس على القوة والعنف في نشر تعاليم الإيمان. وكان لا يُظهر كثيرا من التهجم عند تطرقه للحديث عن للقرآن، ويرى أن هناك مواضيع في القرآن متضمنة لحقيقة المسيحية كما ذكر ذلك القديس يوحنا الدمشقي في مؤلفاته، وأن على المسيحيين إستنتاجها وإستخلاص ما يدعم الإيمان المسيحي من خلال قراءة وفهم وتأويل القران، كما إعتقد هو أنه قد حصل له ذلك في بعض الأحيان بكل إتقان وهدوء[26].

فهل ورد في القرآن أنّ الذين اعتقدوا أن الله هو المسيح المنتظر دليل على أنهم كفارا؟، يبدو أنّ الأمر كذلك، وربما يعني هذا أن الأشخاص الثلاثة المكونون للثالوث المقدس، هم موجودون في المسيح المنتظر ومكونون له، وأن الله الأب موجود فقط في الإبن، فالإنجيل بالطبع لم يكن ليقع في مثل هذا الخطأ الذي لا يغتفر. بل أنه احتفظ بفكرة أن المسيح هو الله، وهذا يكفي. ويبدو أنّ هذا يعتبر تطورا جديدا من حيث المنهج على الرغم من الإحتفاظ بالمادة القديمة المتمثلة في شكل السجال المبكر الذي سبق ظهور الإسلام. لقد كان جدال ناو المدّون باللغة اللاتينية أكثر انتظاما ووضوحا مما كتبه باللغة الفرنسية، إذ كان يستشهد بالقرآن مكتوبا بالأحرف العربية. وكان يحاول من خلال حواره الوصول إلى تحقيق حِكم ونصائح القديس بطرس[27]، وقد تحولت بعض من تلك الحكم لتصير أكثر قوة في التعبير وأكثر إنصافا في الأحكام، وشملت مساحة أكبر حينما يتعلق الأمر بالدفاع عن الكتابات المقدسة بالإستشهاد بآيات من القرآن ومنها الآية السادسة والأربعين من سورة المائدة."وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ"(المائدة 46)، وحقيقة الأمر أنّ ناو كان مهووسا بالبحث عن الحجج المقنعة من القرآن الكريم، بغض النظر على أن اللغة كانت في بعض الأحيان أداة للهجوم على المسلمين.[28] لقد حاول مثلا التسلل والتعمق في معرفة الأسباب الكامنة وراء نفي القرآن لعملية صلب المسيح مستشهدا برسالة الرسول بولس إلى أهل فيلبي2: 8 (وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ مَوْتَ الصَّلِيبِ)[29] ويتساءل، فلماذا رفعه الله؟ وما سبب ذلك، أليس ذلك إظهار أن العقيدة المسيحية هي منبع المجد وليس منبع العار.

ويخلص إلى أن ما قد ذكره من القرآن بهذا المعنى يتفق تماما مع الإنجيل. ولعل هذا الأسلوب من الجدال كان محاولة من أجل التكهن والتوقع بردود فعل المسلمين إتجاه هذه الحجج المسيحية. «لقد كان هذا الشكل من الحجاجة لغة العصر الوسيط على مستوى الأسلوب والمنهج، لقد كانت حجج ناو جديدة في أُساسها، وأما برهنته على التثليث بفكرة المثلث، لم تكن فعالة على الإطلاق. ولم يكن تهجّمه على محمد قد تغيّر أو خالف النماذج القديمة، ويعتبر نصّه اللاتيني أقل لباقة وأكثر تهجّما من نصّه الفرنسي على الرغم من إختياره لعنوان"الحوار الهادئ DialugusPacificus"، لقد كان أقل واقعية وأقل جدية في تشكيل وبناء نقاش عملي عميق»[30].

إنّ استمرار الأحكام المسبقة في مقاربة هذا العصر أي القرن السابع عشر الميلادي تبدو شيئا غريبا، لكون الأب ناو وكثير غيره كانوا أقل حماسا وترويجا لمثل هذه الأحكام التي ميزت كتابات أجيالا عديدة من أسلافهم. ولعل بريد ورئيس كنيسة نروتش Norwich يعترف بفضل وتأثير ريكولدودامانتيكروتشي[31] عليه وبخاصة في مسألة التأسيس لفكرة النبوءة غير الصادقة. إن عمله يعد نموذجا حقيقيا للنماذج المسيحية القديمة التي كانت أقل تسامحا وأكثر تهجّما، وقد اندمج بكل وضوح ضمن الخط الجدالي الذي وضعه الكتاب الوسيطيون، على الرغم من أنه كان أقلّ من أفضلهم في مسألة توازن الأحكام. ويبدو أنّ هدفه الحقيقي كان الدفاع عن العقيدة المسيحية التي يعتبرها ديانة الوحي الحقيقي، ضد تهجمّات وإنتقادات أصحاب الربوبية Deists أولئك الذين يؤمنون بالله ولا يؤمنون بالشريعة والبعث. ولكن هذا لا يبرر إطلاقا الإستعانة بمعارف غير مضبوطة إذا ما قيست الأمور بمعايير ذلك العصر. والملاحظ أيضا أنه احتفظ بالمادة المتعلقة ببحيره الراهب بأنه معلم النبي صلى الله عليه وسلم. لقد حاول ناو إقتداء بمجادلي العصر الوسيط في

مسالة التوفيق بين شخصية سرجيوسSergiusالمعروف في التراث المسيحي وبين شخصية الراهب بحيرة الواردة في التدوين العربي الإسلام. وقد ظل بريدو يتهكّم على الإسلام باستعمال شخصية سرجيوس حتى أواخر سنوات القرن السابع عشر الميلادي وللعلم أنه توفي سنة(1724م) [32].

لقد استمر ذلك الموقف المتطرف والمصّر على إستخدام الأحكام المسبقة لمدة طويلة، حتى صار غير مقبول من طرف بعض المستشرقين في شكله على الأقل. وقد أكّد الباحث الإنجليزي نورمن دانيال، أنه في أحد الكتب الذي صدرت سنة(1785م)ظلت أسطورة اليمامة التي تهمس الوحي في أذن الرسول صلى الله عليه وسلممنتشرة بقوة. وأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان عابد أوثان، وأنه رجل مصاب بالصّرع، وقد تزوج أرملة سيده الأسبق وأن القرآن غير منظم في كتابته وأنه يغلب عليه الغموض...، إضافة إلى بعض الأحكام التي استمرت متداولة في معظم الأوساط الكنسية والفكرية، كإنتصار الإسلام بقوة السلاح، وقد ظل الرسول صلى الله عليه وسلم يوصف بصفات جوفاء لا تنفع إلا للتهريج.

«وكانت حدّة الخبث والكراهية لمحمد (صلى الله عليه وسلم)هي مجمل فحوى كتاب"الحياة"الذي نُشر سنة (1799م) وهي ميزة تميّز بها عن غيره من مؤلفات الفترات السابقة. وقد تصور كاتبه أن كاليغولا ونيرون ودوميتيان وكذلك يهودا الإسخريوطي كانوا"سيخجلون جدا منه إذ حصل وإن شاركهم ساحة أولئك الذين أصابتهم اللعنة في الجحيم" وكان يتصور أيضا أو يعتقد"أن الملايين من البشر العقلاء قد انحطوا إلى مكانة الحيوانات المتوحشة، بسبب إعتناقهم مكر وخُبث رجل واحد». إن مثل هذه الأوصاف والمواقف كانت غير معقول تماما حتى ذلك الزمن المتأخر بعيدا عن العصور الوسطى. فحينما ظهر هذا الكتاب كان نابليون بونابرت قد عاد من مصر،

بعد فشل حملته العسكرية. وأن العصر الحديث الامبريالي قد أصبح فعلا هو الذي يميز العلاقة بين أوربا والعالم العربي والإسلامي. وإلى غاية سنة (1859م) ظل أكيهورست يعتقد في صحّة الكثير من الصفات السابقة الذكر والتي وردت في كتابه هو أيضا[33].

إبتداءً من القرن السابع عشر الميلادي أصبح الفكر الغربي أكثر إنصهارا مع مصادر المسيحية الشرفية فيما يخص موضوع الإسلام، ومع حكم نابليون لفرنسا أصبح الأوربيون يسافرون ويستقرون في بلاد الشرق الإسلامي أكثر فأكثر. مما أدى إلى اعتماد المبشرين وغيرهم من الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء على مصادر المعرفة المتوفرة لدى المسيحيين المحليين أي الشرقيين، فأعادوا استغلال المادة الجديدة الآتية من الشرق لإشعال نار التهجّمات والعداوات القديمة وإحياء الأحكام والمواقف التي كانت فيما يبدو في طريقها إلى الإندثار. وقد شكلت هذه الموجة ضربة موجعة لأنصار الفكر العلمي والمواقف الحرّة النزيهة من رواد الحداثة في الغرب. ومن جهة أخرى فقد كانت الأوساط الدينية المسيحية في أوربا عرضة للنقد والتهجّم. وتحول هذا الأمر إلى المستويات الجامعية العالية ليساهم مسيحيو الشرق في نقد المسيحية الغربية ودعم الحركة اللائكية(اللادينية) بقصد أو بغير قصد. ولكن رواد الفكر المسيحي حاولوا المحافظة على أحكام ومواقف وآراء العصر الوسيط من حيث الأسس، والتي كانت ما تزال تلقى رواجا شعبيا ورسميا كبيرا. ولعل أهم من مثّل لهذا الاتجاه كان المستشرق الإنجليزي الشهير مرجليوث والسير ويليام موير والأبلامنس.[34] حيث احتفظوا بمواقف لا تتناسب إطلاقا مع الحقيقة الدينية أو التاريخية المرتبطة بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم أو مع الإسلام في أسسها وأشكالها. لقد قام وليام مويروجمعية المساعدة التبشيرية التركية، بترجمة كتاب"الرسالة" لعبد المسيح الكندي بنفس الحماس والأهداف

والغايات التي دفعت بطرس المبجّل إلى الأشراف على مشروع ترجمة القرآن الكريم[35].

هناك التصريح والتلميح، الإشارات والإقتباسات في أعمال هؤلاء الكتّاب وغيرهم الذين فضلوا الإستمرار في تلك الأفكار والمواقف السجالية المسيحية منذ عهد القديس يوحنا الدمشقي في قضية نقد الإسلام، كمسألة استعمال العنف والقوة كخطاب أساسي ووحيد لنشر الدعوة الإسلامية. إضافة إلي استخدام المسلمين الغشّ والتضليل النابعة من مشاعرهم السيئة، وهذا الموقف لايخلف بتاتا عن أحكام التي ظلت أساس الدفاع المسيحي خلال العصور الوسطى، على حد تعبير أندريا تور[36].

إنّ التقدم الذي حصل في الغرب ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي، على مستوى الأفكار والأذواق والمهارات، لم يكن ليضع قطيعة واضحة مع التصورات العدائية والتهجمات التي لا تستند لا إلى منطق العقل ولا إلى حقيقة التاريخ والتي بدأت في الحقيقة مع قبيلة قريش في مكة وانتقلت إلى ثقافات وفضاءات جغرافية وزمنية واسعة، ما تزال إلى اليوم تغدي روح العداء والرغبة في الصراع بين الشعوب والقبائل بدل التعارف والتعاون.

الهوامش:

1-حول هذه الفكرة يمكن الإطلاع على الدراسة التي أنجزتها جوزي بلانياكوسطو، حول الإسلام والحركة الإنسانية والتي أصابت عمق التأثير الإسلامي في العمق الأوربي الغربي خصوصا:

BALAGNA JOSEE COUSTOU, (1989), Arabe et humanisme dans la France des derniers Valois, MAISONNEUVE et Larose, Paris, 142 pages.

2-لا تعني الكتابات المقدسة لدى المسيحيين بالضرورة الوحي الإلهي حتى وان كان قد كتب بتصورات وبأيدي بشرية، أن الكنيسة تعتبر أن ما ألفه الإباء الأوائل، هو أيضا مقدس، مثل أعمال الرسل ورسائل القديس بولص.

3-REINECKEREINHARD, (1602), HistoriaOrientalis polihistoris clarissimi Reineccii Reineri, Helmstadt.

4-SYLBURG, FRIEDRICH, (1595), Sarracenica sive Moametheca, Heidelberg.

5-CURIO CELIOAUGUSTINO,(1567), SaracenicaeHistoriaelibriIII, Basle; A Notable histories of the Saracens..., tr. THOMAS NEWTON, 1575, London.

6-*DRECHSLERWOLFGANG, (1550), De Saracenis et TurcisChronicon, Curio, Sarrac. Hist., Strasburg.*

7-KNOLLES RICHARD, (1621), the GenerallHistorie of the Turkes, 3rd ed., London.

8-HOTTINGER J. H.,(1651), HistoriaOrientalis, Zurich./ HOTTINGER J. H., (1658), Smegma Orientalis, Heidelberg.

9-STRUKHUSEN J., (1664), Syntagma Historiae Sarraceno-turcicae, Helmstedt.

10-PIENTINI R. P. F.,(1603), Angelo Pientini da Corsignano, O.P. Alcorano riprivato nel quale si mostra le falsita delta setta Macomettana, Florence.

11-Cf. DANIEL NORMAN, (1960-1962-1966), Islam and the West, the making of an image, EdinburghUniversityPress, Edinburgh, p284.

12-RYER DU ANDRE, (1647), l'Alcoran de Mahomet tr. de l'arabe en français,Paris.

13-RYER DU ANDRÉ, (1649), The Alcoran of Mahomet translated out of arabique into franch..., and newly Englished, with the life and death of Mahomet and a Needfull Caveat, by Alexander Ross, London.

14-نورمن دانيال، اهم كاتب غربي سخّر حياته لدراسة العلاقات بين الإسلام والغرب، كتب: الإسلام والغرب، تشكل صورة، (1966م) الإسلام، أوربا والامبراطورية، (1966م)، العرب وأروباالوسيطية، (1975م)، وغيرها، وقد عمل كملحق ثقافي لدى المجلس البريطاني منذ (1947م)، في كل من البصرة، بغداد، بيروت، الخرطوم والقاهرة.

15-"Good reader, the great**Arabian** Impostor now at last after a thousand years is by way of France arrived in England, and his Alcoran or gallimaufry of Errors, (a Brat as deformed as the Parent and as full of heresies, as his scald head was of scourffe) hath learned to speak english."DANIEL NORMAN, op, cit., p284.

16-خوان أندرس، مسلم اندلسي ابن فقيه، يُحتمل أنه نُصر من طرف محاكم التفتيش، اصبح قسا كاثوليكيا، وألف كتبا أحدها اشتهر وانتشر وترجم كثيرا في أوربا:

ANDRES JUAN, (1515), Confusion de la sectamahomatica y del alcoran, Valancia.Cf. MIGUELDEEPALZA, (2008), El Coran y sustraducciones, University of Alecante.

17- POCOCK, E., (the elder). (1650), Specimen historiae Arabumsive Gregorii Abu'lFargii... de origineetmoribusArabum... narratio, Oxford. / POCOCK, E., (the elder), (1661), Historiacompendiosadynastiarum, Oxford. / POCOCK, E., (1661), Lamiato l Ajarn, Carmen TograipoetaeArabisDoctissimi, una cum versione Latina et notis..., Oxford.

18-*DANIEL NORMAN, op, cit., p284*

19-*LEONHARDT ROCHUS, (2004), Grundinformation Dogmatik, ein Lehr-und Arbeitsbuch für das Studium der Theologie, 2. Auflage, Vandnhoeck& Ruprecht, Göttingen.*

20- SEGESVARY VICTOR, (1978), l'Islam{ XE "Islam" } et la Reforme{ XE "Reforme" \b }, études sur les attitudes des réformateurs zurichois envers l'Islam{ XE "Islam" } (1510-1550), l'Age d'Homme, Lausanne, p 103 Sqq.

21-BODIN JEAN, (1857), Colloquium heptaplomeres de rerumsublimiumarcanisabditis, Schwerin./BODIN JEAN, Les Secrets Cachez des Choses Sublimes, Livres IV-VI, in Chauviré./BODIN JEAN, (1691), De republica, Paris; (1616), Book of a Commonweale, London.

22-BELON PIERRE, (1553), Les Observations de Plusieurs Singularitez, Paris.

23-توماس هربرت،*SIR THOMAS HERBERT, (1606–1682)*، رحالة ومؤرخ كان من النبلاء البريطانيين عاش في بلاط الملك شارل الأول، تتركز معظم اعماله حول وصف كل من أسيا وافريقيا، وكان من الأوربيين الأوائل الذين ادركوا الفروق بين الطوائف الإسلامية كالشيعة والسنة، محاولا استغلال الصراع السياسي العثماني الصفوي لصالح الدول الاوربية، التي كانت تحت التهديد المباشر للعثمانيين، ومن اهم مؤلفاته:

HERBERT SIR THOMAS BART, (1712), Historical and Critical Reflections upon Mahometanism and Socinianism, London. / AUNE, M. G.(2014),Sir Thomas Herbert, Travels in Africa Persia and Asia the Great, Seventeenth-Century News, 72(3-4), 230.

24-NAU M, (1680), Relegio Christiana contra Alcoranum pacifice defensa et probata, Paris./NAU M, (1684), l'état présent de la Religion Mahométane, Paris.

25-*NORMAN D.,Islam and the West, op. cit., p*285

26-*IBID., p*285

27 - آية (1 بط 3: 16): وَلَكُمْ ضَمِيرٌ صَالِحٌ، لِكَيْ يَكُونَ الَّذِينَ يَشْتِمُونَ سِيرَتَكُمُ الصَّالِحَةَ فِي الْمَسِيحِ، يُخْزَوْنَ فِي مَا يَفْتَرُونَ عَلَيْكُمْ كَفَاعِلِي شَرّ. "http://st-takla.org/Bibles -01-24 ، 14:19 /2016سا

27-I Petri 3:16, Biblia Sacra Vulgata"sed cum modestia et timore conscientiam habentes bonam ut in eo quod detrahunt vobis confundantur qui calumniantur vestram bonam in Christo conversationem"

28-*«Hoc qui dicunt e vestris reposuit Christianus, videntur garrire et fabulare gratuito»*

29 *-http://st-takla.org/Bibles* 14:19 /2016-01-24 ، سا

30-*NORMAN D.,Islam and the West, op. cit., p*286

31-ريكولدو{" XE "ريكولدو "}دامانتيكروتشي (1243-1320م)Ricoldo da Monte Croce، راهب دومينيكانيمن فلورنسا، زار الشام وإستقر بالعراق لسنوات، أراد استدراج نصارى بغداد والموصل إلى الإنتماء الى الكنيسة الكاثوليكية في روما، أشتهر بكتاب ConfutatioAlcorani، الذي اثر كثير في الغرب اللاتيني في قضية التهجم على الإسلام.

32-PRIDEAUX HUMPHREY,(1697), The True Nature of Imposture Fully Display'd in the Life of Mahomet, with a Discourse annexed for the Vindicating of Christianity, London, pp38-39. Cf.BURCKHARDT, (1959), Judgment on history and historians, London, p65.

33-*AKEHURST G. (1859), Imposture Instanced in the Life of Mahomet, London,. 78 Cf. NORMAND.,Islam and the West, op. cit., p2*

34-*MARGOLIOUTH D. S., (1929), Mohammad and the rise of Islam, London. / MUIR WILLIAM, (1897), the life of Mohamed, Edinbrugh. LAMMENS H., (1911), Mahomet, fut–il sincere?*

35-*Cf. NORMANDANIEL, op. cit.,p287*

36-CF. TOR ANDREA, (1932), Mohammed, sein Leben und Glaube, Goettingen.